□ علوُّ الهِمَّة في الرِّضا □

الرضا ثمرةٌ من ثمار المحبّة ، وهو من أعلىٰ مقامات المقرّبين ، وحقيقته غامضة علىٰ الأكثرين . وهو باب الله الأعظم ، ومستراحُ العارفين ، وجنة الدنيا ، فجدير بمن نصح نفسه أنْ تشتدّ رغبتُه فيه ، وأن لا يستبدل بغيره منه .

ورضا الله عن العبد أكبرُ من الجنة وما فيها ؛ لأنَّ الرضا صفة الله والجنة خلقُه ، قال تعالىٰ : ﴿ **ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] ، بعد قوْله : ﴿ **وعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ ورضوان من الله أكبر * ذلكَ هُو الفوزُ العظيم** ﴾ . وهذا الرضا جزاءٌ علىٰ رضاهم عنه في الدنيا ، ولمّا كان هذا الجزاء أفضل الجزاء ، كان سببُه أفضل الأعمال .

والسخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن وشتات القلب ، وكَسْف البال ، وسُوء الحال، والظنّ بالله خلاف ما هو أهلُه ، والرضا يخلّصه من ذلك كلّه ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة . فالرضا يُوجب له الطمأنينة وبَرد القلب وسكونه وقراره ، والسخط يُوجب اضطراب قلبه ، وريبته وانزعاجه ، وعدم قراره .

والسُّخط يُوجب تلوُّن العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضىٰ إلّا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وما لا يلائمه ، وكلّما جرىٰ عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبُتْ له قدم علىٰ العبودية ، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات ، استقرَّت قدمُه في مقام العبودية ، فلا يُزيل التلوُّن عن العبد شيءٌ مثلُ الرضا .

والرضا يفرّغ القلب لله ، والسُّخط يُفرّغ القلب من الله ، فإنَّ مَن

ملأ قلبه من الرضا ، ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعة ، وفرّغ قلبه لمحبّته والإنابة إليه والتوكُّل عليه ، ومَن فاته حظُّه من الرضا امتلأ قلبه بضدِّ ذلك ، واشتغل عمّا فيه سعادته وفلاحه .

الرضا ذِرْوة سَنام أعمالِ القلوب :

والرضا مِن أَعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ؛ فإنّ كلَّ واحد منهما ذروةُ سَنام الإيمان . قال أبو الدرداء : « ذروة سَنام الإيمان : الصبر للحكْم ، والرضا بالقدر »[1] .

وبداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة ، فأوَّله مقامٌ ونهايته حالٌ .

وقد مدح الله أهله وأثنىٰ عليهم وندبهم إليه ، فدلَّ ذلك علىٰ أنّه مقدور لهم . وقد قال رسول الله ﷺ: « ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ رسولًا »[2].

وقال رسول الله ﷺ : « مَن قال حين يَسمع المؤذّن : وأنا أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وَحدَه لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسوله ، رضيتُ بالله ربًّا ، وبمحمد رسولًا ، وبالإسلام دينًا . غفر الله له ما تقدّم من ذنوبه »[3] .

« وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي . وقد تضمّنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته ، والرضا برسوله ، والانقياد له .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٤ .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، عن العباس بن عبد المطلب .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن سعد .

والرضا بدينه ، والتسليم له . ومَن اجتمعت له هذه الأربعة ، فهو الصديق حقًّا ، وهي سهلة بالدعوىٰ واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادَها ، من ذلك تبيّن أن الرضا كان لسانه به ناطقًا ، فهو علىٰ لسانه لا علىٰ حاله .

فالرضا بإلهيته : يتضمن الرضا بمحبته وحده ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتُّل إليه ، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحبّ كلها إليه . فعل الراضي بمحبوبه كلّ الرضا . وذلك يتضمّن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيّته : يتضمّن الرضا بتدبيره لعبده ، ويتضمّن إفراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به ، والثقة به ، والاعتماد عليه . وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به .

فالأول : يتضمن رضاه بما يُؤْمر به ، والثاني : يتضمّن رضاه بما يُقدَّر عليه .

وأما الرضا بنبيّه رسولًا : فيتضمّن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه ، فلا يتلقّىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكّم عليه غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره ألبتة ، لا في شيء من أسماء الربّ وصفاته وأفعاله ، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيءٍ مِن أحكامِ ظاهره وباطنه ، لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضىٰ إلا بحكمه ، فإنْ عجز عنه كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاءِ المضطر إذا لم يجد ما يقيتُهُ إلا مِن الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب ، الذي إنما يُتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال ، أو حكم ، أو أمر ، أو نهى : رضي كل الرضا ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسَلَّم له تسليمًا ، ولو كان

مخالفًا لمراد نفسه أو هواها ، أو قوْل مُقلِّده وشيخه وطائفته .

وهاهنا يوحشك الناسُ كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرُّد ، فإنّه واللهِ عينُ العزّة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، وبالإسلام دينًا .

بل الصادق كُلّما وجد مسَّ الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتَنَسَّمَ روحه ، قال : اللهمّ زدني اغترابًا ، ووحشة مِن العالم ، وأُنسًا بك ، وكلّما ذاقَ حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرُّد ، رأىٰ الوحشة عيْنَ الأنس بالناس ، والذلَّ عينَ العزِّ بهم ، والجهلَ عينَ الوقوفِ مع آرائهم ، وزِبالة أذهانهم ، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يُؤْثِر بنصيبهِ مِن الله أحدًا من الخلق ، ولم يَبِعْ حظَّه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان . وغايته : مودَّةَ بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعتِ الأسباب . وَحَقَّتِ الحقائق ، وبُعثِر ما في القبور ، وَحُصِّلَ ما في الصدور ، وبُليتِ السرائر ، ولم يجد مِن دون مولاه الحقّ مِن قوة ولا ناصر : تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران ، وما الذي يَخفُّ أو يرجح به الميزان ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان »(١) .

« فالرضا كسْبيٌّ باعتبار سببه ، موهبيٌّ باعتبار حقيقته ، فيمكن أنْ يُقال بالكسب لأسبابه ، فإذا تمكّن من أسبابه وغرَس شجرتَه ، اجتنىٰ منها ثمرة الرضا ، فإن الرضا آخر التوكّل ، فمَن رسخ قدمه في التوكّل والتسليم والتفويض ، حصل له الرضا ولا بدّ ، ولكنْ لعزَّته وعدم إجابة أكثَر النفوس له ، وصعوبته عليها - لم يُوجبه الله على خلقه ، رحمة بهم ، وتخفيفًا عنهم ، لكنْ ندبهم إليه ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أنّ ثوابَه رضاه عنهم ،

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٢ - ١٧٣ .

الذي هو أعظم وأكبر وأَجلّ من الجِنان وما فيها ، فمن رضي عن ربِّه رضي الله عنه ، بل رضا العبدِ عن الله من نتائج رضا الله عنه ، فهو محفوف بنوعيْن من رضاه عن عبده : رضًا قبله ، أوجب له أن يرضىٰ عنه ، ورضًا بعده ، هو ثمرة رضاه عنه . ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبيّن ، ونعيم العابدين ، وقُرّة عيون المشتاقين .

ومن أعظم أسباب حصول الرضا : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بدّ .

قيل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به ربّه ، فيقول : إن أعطيتَني قبلتُ ، وإنْ منعتَني رضيتُ ، وإنْ تركتني عبدتُ ، وإن دعوتَني أجبتُ .

وقال الجنيد : الرضا هو صحّة العلْم الواصل إلى القلب ، فإذا باشَر القلب حقيقة العلم ، أدّاه إلى الرضا .

وليس « الرضا والمحبة » كالرجاء والخوف ؛ فإنّ الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ، لا يفارقان المتلبِّس بهما في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة ، بخلاف الخوف والرجاء ، فإنّهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه ، وأمّنهم مما كانوا يخافونه ، وإن كان رجاؤهم لما ينالون مِن كرامته دائمًا لكنّه ليس رجاءً مشوبًا بشكٍّ ، بل هو رجاءٌ واثق بوعد صادق ، من حبيب قادر ، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون .

وقال ابن عطاء : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنّه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به .

قلت : وهذا رضًا بما منه ، وأما الرضا به : فأعلىٰ من هذا وأفضل ، ففرقٌ بينَ مَن هو راضٍ بمحبوبه ، وبين من هو راضٍ بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه . والله أعلم »[1].

الهمَّةُ العاليةُ شِيمَتُهَا الرِّضا :

قال ابن القيم رحمه الله : « وطريق الرضا طريق مختصرة ، قريبة جدًّا ، موصّلة إلى أجَلِّ غايةٍ ، ولكن فيها مشقّة ، ومع هذا فليست مشقّتُها بأصعبَ من مشقةِ طريق المجاهدةِ ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها همّة عالية ، ونفسٌ زكيّة ، وتوطين النفس علىٰ كلّ ما يرِد عليها من الله .

ويسهِّل ذلك على العبد : علمُه بضعفه وعَجْزه ورحمته به ، وشفقته عليه ، وبرّه به ، فإذا شهد هذا وهذا ، ولم يطرحْ نفسَه بين يديه ، ويرضىٰ به وعنه ، وتنجذب دواعي حبِّه ورضاه كلها إليه ؛ فنفسه نفسٌ مطرودة عن الله ، بعيدة عنه ، ليست مؤهّلَةً لقرْبه وموالاته ، أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن .

فطريق الرضا والمحبة : تُسَيِّر العبدَ وهو مستلقٍ على فراشِهِ ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل .

وثمرة الرضا : الفرح والسرور بالربّ تبارك وتعالىٰ .

ورأيتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - في المنام ، وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أَذْكرُه الآن - فقال : أمّا أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به ، أو نحو هذا من العبارة .

---

(١) مدارج السالكين ١٧٤ - ١٧٥ .

وهكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، ويُنادي به عليه حالُه .

لكن قد قال الواسطي : استعملِ الرضا جهدَك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك ، فتكون محجوبًا بلذّته ورؤيته عن حقيقة ما تُطالع .

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم ، ومقطع لهم ، فإنَّ مُساكنة الأحوال ، والسكون إليها ، والوقوف عندها ؛ استلذاذًا ومحبة : حجابٌ بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم ، وهي عقبة لا يجوزها إلَّا أولو العزائم .

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة ، شديد التنبيهِ عليها . ومن كلامه : إياكم واستحلاء الطاعات ، فإنها سموم قاتلة .

فهذا معنىٰ قوله : « استعملِ الرضا جهدك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك » . أي : لا يكون عملك لأجلِ حصول حلاوة الرضا ، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه ، بلِ اجعْله آلةً لك وسببًا موصِّلًا إلى قصدك ومطلوبك ، فتكون مستعملًا له ، لا أنه مستعملٌ لك .

وهذا لا يختصُّ بالرضا ، بل هو عامٌّ في جميع الأحوال والمقامات القلبية ، التي يسكن إليها القلب ، حتى إنه أيضًا لا يكون عاملًا على المحبّة لأجْل المحبة ، وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به ، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب ، لا يقف عندها ، فهذا من عِلل المحبة .

وقال ذو النون : ثلاثة من أعلام الرضا : تركُ الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحبّ في حشو البلاء .

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما : إنّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه يقول : الفقر أحبُّ إليَّ من الغنىٰ ، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة . فقال :

رحِمَ الله أبا ذر ، أمَّا أنا ، فأقول : مَن اتّكل على حُسْن اختيار الله له ، لم يتمنَّ غير ما اختار الله له .

وقال الفضيل بن عِياض لبشْر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قوْل النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » . فقال : لأنَّ الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وقيل : الرضا ارتفاع الجزَع في أيِّ حكمٍ كان .

وقيل : رفع الاختيار . وقيل : استقبال الأحكام بالفرح .

وقيل : سكونُ القلب تحت مجاري الأحكام .

وقيل : نظرُ القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، وهو ترك السخط .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسىٰ رضي الله عنهما : « أما بعد ، فإنّ الخير كلّه في الرضا ، فإنِ استطعتَ أنْ ترضىٰ ، وإلّا فاصبر » .

وقال أبو عليّ الدقّاق : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحقِّ تعالىٰ .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حالٍ فكرهتُه ، وما نقلني إلى غيره فسخطتُه .

والرضا ثلاثة أقسام : رضا العوامِّ بما قسَمه الله وأعطاه . ورضا الخواصِّ بما قدّره وقضاه ، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا من كلّ ما سواه »[1].

* * *

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٥ - ١٧٧ .

الرِّضا خروجٌ عن الحُظوظ ، ووُقوفٌ صادقٌ مع مُراد اللهِ :

قال تعالىٰ : ﴿ **يَاأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فَادْخُلِي في عِبَادي وادْخلي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

اعلم يا أخي أنَّ أولَ الرضا خروجٌ عن الحظوظ ، والرضا هو الوقوف الصادق مع مراد الله تبارك وتعالىٰ الديني حقيقةً ، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة ، وهذا مطلوب القوم السابقين ، وهو الوقوف الصادق مع محابِّ الربِّ تعالىٰ ، من غير أنْ يشوبَ ذٰلك تردُّدٌ ، ولا يزاحمه مراد .

يقف العبد حيثما وقفه ربُّه ، لا يطلب تقدُّمًا ولا تأخُّرًا ، وهذا إنما يكون فيما يَقِفه فيه من مراده الكوني الذي لا يتعلّق بالأمر والنهي ، وأمَّا إذا وقَفه في مراد ديني ، فكماله بطلب التقدُّم فيه دائمًا ، فإنّه إنْ لم تكن همّته التقدُّم إلى الله في كلِّ لحظة ، رجع من حيث لا يدري ، فلا وقوف في الطريق ألبتة ، ولكن إذا وقف في مقامٍ - من الغنىٰ والفقر ، والراحة والتعب ، والعافية والسقم ، والاستيطان ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه ، لا يطلب غير تلك الحالة التي أقامه الله فيها ، وهذا لتصحيح رضاه باختيار الله له ، والفناء به عن اختياره لنفسه .

أرفعُ الرِّضا : الرِّضا باللهِ ربًّا ، وهو أعلىٰ مِنَ الرِّضَا عن الله :

الرضا بالله ربًّا ، وتسخّط عبادة ما دونه : قَطْبُ رحىٰ الإسلام .

الرضا بالله ربًّا: أنْ لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالىٰ يسكن إلى تدبيره ، ويُنزل به حوائجه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **قُلْ أغَيْرَ اللهِ أبغي رَبًّا وَهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : « سَيِّدًا وإلٰهًا » . يعني : فكيف أطلب رَبًّا غيره ، وهو ربُّ كلّ شيءٍ ؟! وقال في أول السورة : ﴿ **قُلْ أغيرَ اللهِ أتخذُ وليًّا فاطرِ السمٰواتِ والأرضِ** ﴾ [الأنعام : ١٤] .

يعني معبودًا وناصرًا ومُعينًا ومَلجأً . وهو من الموالاة التي تتضمَّن الحبّ والطاعة . وقال في وسطها : ﴿ **أَفغيرَ اللهِ أَبتَغِي حَكَمًا وهو الذي أنزلَ إليكُمُ الكتابَ مُفصَّلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . أي : أَفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم ، فنتحاكَمُ إليه فيما اختلفنا فيه ؟! وهذا كتابه سيّد الحكّام ، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه ، وقد أنزله مفصَّلًا ، مبينًا كافيًا شافيًا ؟!

وأنت إذا تأملتَ هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمُّل ، رأيتَها هي نفس الرضا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، ورأيتَ الحديث يترجم عنها ، ومشتقٌّ منها ، فكثير من الناس يرضىٰ بالله ربًّا ، ولا يبغي ربًّا سواه ، لكنّه لا يرضىٰ به وحدَه وليًّا وناصرًا ، بل يُوالي من دونه أولياء ، ظنًّا منه أنهم يقرّبونه إلى الله ، وأنَّ موالاتهم كموالاة خواصّ الملك ، وهذا عيْنُ الشّرْك . بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء ، والقرآن مملوء من وَصْف المشركين بأنهم اتخذوا مِن دونه أولياء .

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله ، وعباده المؤمنين فيه ؛ فإنَّ هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته ، فموالاة أوليائه لوْن ، واتخاذ الوليّ مِن دُونه لوْن ، ومَن لم يفهمِ **الفُرقان** بينهما ، فليطلبِ التوحيد من أساسه ، فإنّ هذه المسألة أصلُ التوحيد وأساسه .

وكثير من الناس يبتغي غيرَه حَكَمًا ، يتحاكم إليه ، ويخاصم إليه ، ويرضىٰ بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أركانُ التوحيد : أن لا يتخذ سواه رَبًّا ، ولا إلٰهًا ، ولا غيره حَكَمًا .

وتفسير الرضا بالله رَبًّا : أنْ يسخط عبادةَ ما دونه . هذا هو الرضا بالله إلٰهًا ، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا ، فمن أعطىٰ « الرضا به رَبًّا » حَقَّهُ ، سَخِطَ عبادةَ ما دونه قطعًا ؛ لأنَّ الرضا بتجريد ربوبيّته يستلزم تجريد عبادته ،

كما أنّ العلم بتوحيد الربوبيّة يستلزم العلم بتوحيد الإلٰهية .

ومدارُ رحىٰ الإسلام علىٰ أنْ يرضىٰ العبد بعبادة ربِّه وحده ، وأن يسخطَ عبادة غيره .

قال الهروي : « وهو يصحُّ بثلاثة شروط : أنْ يكون الله عز وجل أحبَّ الأشياءِ إلى العبد ، وأوْلَىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياءِ بالطاعة » .

قال ابن القيم : « يعني أنّ هذا النَوْعَ من الرضا إنما يصحُّ بثلاثة أشياء أيضًا :

أحدها : أن يكون الله عز وجلَّ أحبَّ شيءٍ إلى العبد . وهذه تُعرف بثلاثةِ أشياء أيضًا :

أحدها : أن تَسبق محبَّتهُ إلى القلب كلَّ محبة ، فتتقدَّم محبّته المحابَّ كلّها .

الثاني : أن تَقْهر محبَّتُه كلَّ محبَّة . فتكون محبّته إلى القلب سابقة قاهرة ، ومحبّة غيره متخلّفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبَّته .

الثالث : أن تكون محبّة غيره تابعةً لمحبته . فيكون هو المحبوب بالذات ، والقصد الأول ، وغيره محبوبًا تبعًا لحبه ، كما يُطاع تبعًا لطاعته ، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب .

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضًا .

فالحاصل : أن يكون الله وحده المحبوب المعظّم المطاع ، فمن لم يحبَّه ، ولم يطعْه ، ولم يعظِّمه : فهو متكبِّر عليه . ومتىٰ أحبَّ معه سواه ، وعظَّم معه سواه ، وأطاع معه سواه : فهو مشرك . ومتىٰ أفرده وحده بالحبِّ والتعظيم والطاعة: فهو عبد موحِّد . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

والرضا بالله أعلىٰ شأنًا وأرفعُ قدرًا من الرضا عن الله في أحكامه

وأقضيته ؛ فإنّها مختصّة ، والرضا عن الله مشترك ، فإنّ الرضا بالقضاء يصحّ من المؤمن والكافر ، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره ، فأينَ هذا من الرضا به ربًّا وإلٰهًا ومعبودًا ؟!

والرضا به ربًّا فرضٌ ، بل هو من آكَدِ الفروض باتِّفاق الأُمَّة ، فمن لم يرضَ به ربًّا ، لم يصحَّ له إسلامٌ ولا عملٌ ولا حال .

وأما الرضا بقضائه : فأكثر الناس على أنه مستحبٌّ وليس بواجب ، وقيل : بل هو واجب . وهما قولانِ في مذهب أحمد .

فالفرق بين الدرجتيْن فرقُ ما بيْن الفرضِ والنَّدْب . وفي الحديث الإلٰهي الصحيح:« يقول الله عز وجل : ما تقرّب إليَّ عبدِي بمثل أداء ما افترضتُ عليه » . فدلَّ علىٰ أنَّ التقرُّب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلىٰ من التقرُّب إليه بالنوافل .

وأيضًا : فإنّ الرضا به ربًّا يتضمَّن الرضا عنه ويستلزمه ؛ فإنّ الرضا بربوبيته : هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه ، ويقسّمه له وَيُقَدِّره عليه ، ويُعطيه إياه ويمنعه منه . فمتىٰ لم يرضَ بذٰلك كلّه ، لم يكن قد رضي باللّٰه ربًّا من جميع الوجوه . وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها . فالرضا به ربًّا من كلّ وجهٍ : يستلزم الرضا عنه ، ويتضمَّنه بلا ريبٍ .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا متعلِّق بذاته وصفاته وأسمائه ، وربوبيته العامّة والخاصّة . فهو الرضا به خالقًا ومدبِّرًا ، وآمرًا وناهيًا ، ومِلِكًا ومعطيًا ومانعًا ، وحكمًا ، ووكيلًا ووليًّا ، وناصرًا ومعينًا ، وكافيًا وحسيبًا ورقيبًا ، ومبتليًا ومعافيًا ، وقابضًا وباسطًا ، إلى غير ذلك من صفات ربوبيّته .

وأما الرضا عنه : فهو رضا العبد بما يفعله به ، ويُعطيه إياه . ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **يَـٰأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ** ﴾

ارجعي إلىٰ ربِّك راضيةً مَرْضيةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] . فهذا برضاها عنه لِمَا حصل لها من كرامته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **خالدينَ فيهَا أبدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

والرضا به : أصل الرضا عنه ، والرضا عنه : ثمرة الرضا به .

وسرُّ المسألة : أنّ الرضا به متعلّق بأسمائه وصفاته ، والرضا عنه : متعلّق بثوابه وجزائه .

وأيضًا : فإنَّ النبي ﷺ علّق ذوْق طعْم الإيمان بمَن رضي بالله ربًّا ، ولم يعلِّقه بمَن رضي عنه ، كما قال ﷺ : « ذاقَ طعمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا » . فجعل الرضا به قرينَ الرضا بدينه ونبيّه ، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها وعليها .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجاءه ومحبته ، والصبر له وبه . والشكر على نعمه : يتضمَّن رؤية كلّ ما مِنْهُ نعمةً وإحسانًا ، وإن ساء عبدَهُ . فالرضا به يتضمَّن « شهادة أن لا إلٰه إلا الله » ، والرضا بمحمد رسولًا يتضمَّن « شهادة أن محمدًا رسول الله » ، والرضا بالإسلام دينًا : يتضمَّن التزام عبوديته ، وطاعته وطاعة رسوله . فجمعت هذه الثلاثة الدين كلّه .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن اتخاذه معبودًا دون ما سواه ، واتخاذه وليًّا ومعبودًا ، وإبطال عبادة كل ما سواه . وقد قال تعالىٰ لرسوله : ﴿ **أفغيرَ اللهِ أبتغي حكَمًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . وقال : ﴿ **أغَيرَ اللهِ أتَّخذُ وليًّا** ﴾ [الأنعام : ١٤] . وقال : ﴿ **قُلْ أغيرَ اللهِ أبغي ربًّا وهُو ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] . فهذا هو عين الرضا به ربًّا .

وأيضًا : فإنَّه جعل حقيقة الرضا به رَبًّا : أن يسخط عبادة ما دونه . فمتىٰ سخط العبد عبادة ما سوىٰ الله من الآلهة الباطلة ، حبًّا وخوْفًا ، ورجاءً وتعظيمًا ، وإجلالًا – فقد تحقّق بالرضا به ربًّا ، الذي هو قطْب رحىٰ الإسلام .

وإنما كان قطبَ رحىٰ الدين ؛ لأنَّ جميع العقائد والأعمال ، والأحوال : إنما تنبني علىٰ توحيد الله عز وجل في العبادة ، وسخْط عبادة ما سواه ، فمَن لم يكنْ له هذا القطْب ، لم يكنْ له رَحَىٰ تدور عليه ، ومَن حصل له هٰذا القطْب ، ثبتتْ له الرحىٰ ، ودارت علىٰ ذلك القطب ، فيخرج حينئذ مِن دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام ، فتدور رحىٰ إسلامه وإيمانه على قطْبها الثابت اللازم .

وأيضًا : فإنّه جعل حصول هذه الدرجة مِن الرضا موقوفًا علىٰ كون المرضيِّ به ربًّا – سبحانه – أحبَّ إلى العبد مِن كلّ شيء ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينتظم فروعها وشُعَبها .

ولمّا كانت المحبَّة التامّة ميلَ القلب بكلّيّته إلى المحبوب ، كان ذلك الميل حامِلًا على طاعته وتعظيمه ، وكلّما كان الميْلُ أقوىٰ ، كانت الطاعة أتمَّ ، والتعظيم أوفرَ . وهذا الميل يُلازم الإيمان ، بل هو رُوح الإيمان ولُبُّه ، فأي شيءٍ يكون أعلىٰ من أمرٍ يتضمَّن أنْ يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ؟!

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان ؛ كما في الصحيح عنه ﷺ ، أنه قال : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما ، ومَن كان يحبّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومَن كان يكره

أن يرجع إلى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقىٰ في النار » .

فعلّق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا ، وعلّق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتمّ إلا به ، وهو كونه سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد هو ورسولُه .

ولمّا كان هذا الحبُّ التامّ ، والإخلاص - الذي هو ثمرته - أعلىٰ من مجرَّد الرضا بربوبيته سبحانه ، كانت ثمرته أعلىٰ ، وهي وَجْد حلاوة الإيمان . وثمرة الرضا : ذوْق طعْم الإيمان ، فهذا وَجْدُ حلاوة ، وذلك ذوْق طعمٍ . والله المستعان .

وإنما ترتّب هذا وهذا علىٰ الرضا به وحده ربًّا ، والبراءة من عبودية ما سواه ، ومَيْل القلب بكلّيّته إليه ، وانجذاب قُوَىٰ المحبِّ كلِّها إليه . ورضاه عن رَبِّه تابعٌ لهذا الرضا به . فمن رضي بالله ربًّا ، رضيه اللهُ له عبدًا . ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته ، لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه ، إن لم يرضَ به ربًّا ، وبنبيّه رسولًا ، وبالإسلام دينًا . فإن العبد قد يرضىٰ عن الله ربِّه فيما أعطاه وفيما منعه ، ولكن لا يرضىٰ به وحده معبودًا وإلـٰهًا . ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا . كما قال النبي ﷺ : « مَنْ قال كلَّ يوم : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ، إلَّا كان حقًّا علىٰ الله أنْ يُرضيه يوم القيامة »[1] .

وبالرِّضا نطَقَ التنزيل :

قال تعالىٰ : ﴿ **هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز**

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨١ - ١٨٧ .

العظيم ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه** ﴾ [البينة : ٨] .

فتضمَّنتْ هذه الآياتُ جزاءَهم على صدقهم وإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ومجاهدة أعدائه ، وعَدَم ولايتهم ، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم ، فرضوا عنه . وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ، وبالإسلام دينًا .

الرضا بالله ، والرضا عن الله ، والرضا بقضاء الله :

الرضا به فَرْض ، والرضا عنه ، وإن كان من أجَلِّ الأمور وأشرف أنواع العبودية ، فلم يُطالب به العمومَ لعجزهم ومشقَّته عليهم ، وأوجبتْهُ طائفةٌ ، كما أوجبوا الرضا به . والرضا بالقضاء من مقامات الصِّدِّيقين ، وفيه تفصيلٌ ، فاختيار الرب تعالىٰ لعبده نوعان ؛ أحدهما : اختيار ديني شرعي . فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سَيِّدُه . قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضىٰ الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ...** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . فاختيار العبدِ خلافَ ذلك ، مُنافٍ لإيمانه وتسليمه ، ورضاه بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . النوع الثاني : اختيارٌ كونيٌّ قَدَرِيّ ، لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده ، فهذا لا يضرُّه فِراره منها إلى القَدَر الذي يرفعها عنه ، ويدفعها ويكشفها . وليس في ذلك مُنازَعة للربوبية ، وإن كان فيه

منازعة للقَدَر بالقَدَر . فهذا يكون تارةً واجبًا ، وتارةً يكون مستحبًّا ، وتارة يكون مباحًا مستوي الطرفيْن ، وتارة يكون مكروهًا ، وتارة يكون حرامًا . وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ، مثل قَدَر المعائب والذنوب ، فالعبد مأمور بسخطها ، ومنهيٌّ عن الرضا بها . وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء .

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا ، ونجا منه أصحاب الفَرْق والتفصيل .

والذي يكشف هذه الغمة ، ويُبصِّر من هذه العماية ، ويُنجِّي من هذه الورطة إنما هو التفريقُ بين ما فرَّق الله بينه ، وهو المشيئة والمحبة ، فإنهما ليسا واحدًا ، ولا هما متلازميْن ، بل قد يشاء ما لا يحبه ، ويحب ما لا يشاء كوْنه . فالأول : كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامّة لجميع ما في الكون ، مع بغضه لبعضه . والثاني : كمحبَّته إيمان الكفار ، وطاعات الفُجّار ، وعدْل الظالمين ، وتوبة الفاسقين . ولو شاء ذلك ، لوجِد كلُّه، وكان جميعُه ، فإنه ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُن. فإذا تقرَّر هذا الأصل ، وأن الفِعْلَ غيرُ المفعول ، والقضاءَ غيرُ المقضيّ ، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه – زالت الشبهاتُ وانحلَّتِ الإشكالاتُ ، ولله الحمد . ولم يبق بين شَرْع الرَّبِّ وقَدَره تناقض ، بحيث يُظنّ إبطالُ أحدهما للآخر ، بل القَدَر ينصرُ الشّرْع ، والشرع يُصَدِّق القدر ، وكلٌّ منهما يُحقِّق الآخر . إذا عُرف هذا ، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجبٌ ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان ، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرجٍ ولا منازعة ، ولا معارضةٍ ولا اعتراض . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلِّموا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكِّموا رسوله ﷺ ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حُكمه ، وحتى يُسلِّموا لحُكمه تسليمًا . وهذا حقيقة الرضا بحُكمه .

فالتحكيم : في مقام الإسلام . وانتفاء الحرج : في مقام الإيمان . والتسليم : في مقام الإحسان .

ومتىٰ خالطَ القلبَ بشاشةُ الإيمان ، واكتحلتْ بصيرتُه بحقيقة اليقين ، وحيي برُوح الوحي ، وتمهَّدتْ طبيعتُه ، وانقلبت النفسُ الأمَّارةُ مطمئنةً راضية وادعة ، وتلقَّى أحكام الرَّبِّ تعالىٰ بصدرٍ واسع منشرح مسلِّم - فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة ، والغنىٰ ، والعافية ، واللَّذَّة - أمرٌ لازم بمقتضىٰ الطبيعة ؛ لأنه ملائم للعبد ، محبوبٌ له ، فليس في الرضا به عبودية ، بل العبودية في مُقابلته بالشُّكر ، والاعتراف بالمِنَّة ، ووضْع النعمة مواضعها التي يحب الله أن تُوضع فيها ، وأن لا يعصي المنعم بها ، وأن يرىٰ التقصير في جميع ذلك . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ، مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره - مستحبٌّ . وهو من مقامات أهل الإيمان ، وفي وجوبه قولان . وهذا كالمرض والفقر ، وأذَى الخلْق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك . والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ، مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهىٰ عنه ، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان - حرامٌ يُعاقب عليه ، وهو مخالفة لربه تعالىٰ ؛ فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟! فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء[١] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨٧ - ١٩٣ .

الرضا عن الله يصحُّ بثلاثة شروط :

الأول : استواء النعمة والبليَّة عند العبد ؛ لأنه يشاهد حُسن اختيار الله له .

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلْق ، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله ، فالراضي لا يُخاصم ولا يُعاتب إلَّا فيما يتعلّق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ، فإنه لم يكن يخاصم أحدًا ولا يُعاتبه إلَّا فيما يتعلَّق بحق الله ، كما أنه كان لا يغضب لنفسه ، فإذا انتُهكتْ محارمُ الله لم يقُم لغضبه شيءٌ حتى ينتقم لله . فالمخاصمة لحظِّ النَّفْس تُطفئ نور الرضا وتُذهب بهجته ، وتُبدِّل بالمرارة حلاوته ، وتُكدِّر صَفْوه .

والشرط الثالث : الخلاص من المسألةِ للخلْق والإلحاح . قال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياءَ من التَّعفُّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . قال ابن عباس : إذا كانَ عنده غداء لم يسأل عشاءً ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداءً .

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : « يا حكيم ، إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوة ، فمن أخذه بسخاوةِ نَفْسٍ ، بُورك له فيه . ومن أخذه بإشرافِ نفسٍ ، لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع . واليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفلى » . قال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا . وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه . ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه ، فأبى أن يقبل منه شيئًا ، فقال عمر : إني أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم : أني أعرضُ عليه حقَّه من هذا الفيء ، فيأبى أن يأخذه .

فلم يَرْزأ حكيم - رضي الله عنه - أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي . متفق على صحته .

وعن أبي مسلم الخَوْلاني رضي الله عنه قال : حدَّثني الحبيب الأمين - أمّا هو : فحبيب إليَّ ، وأمّا هو عندي : فأمين ؛ عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . وكنا حديثي عهدٍ ببيعته ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . قال : فبسطنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلامَ نبايعكَ ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا الله - وأسَرَّ كلمةً خفيَّة - ولا تسألوا الناس شيئًا ». فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوْط أحدهم ، فما يسأل أحدًا يناوله إيّاه » . رواه مسلم .

وعن ثوبانَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يتقبّل لي بواحـدة ، وأتقبل له بالجنة ؟ » قلت : أنا . قال : « لا تسـألِ الناس شيئًا » . فكان ثوبان يقعُ سوطه ، وهو راكب ، فلا يقول لأحد : ناولنيه . حتى ينزل هو فيتناوله . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

تَذْكِرة لعُلاة الهمَّة :

مراتب الرضا عن الله، والرحمة عند المصائب :

قد تنزل بالإنسان مصيبة كموت ولدٍ ، فيبكي رحمةً للصَّبِيِّ ، وهذا لا يُنافي مقام الرضا ، فقد بكى رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ، وأخبر أن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلَّا ما يُرضي الرَّبّ .

والرسول ﷺ في أعلى مقامات الرضا . وأقل منه درجة الفضيل بن

عياض ، لما مات ابنه رُئِيَ في الجنازة ضاحكًا ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال : إن الله قضىٰ بقضاءٍ ، فأحببت أن أرضىٰ بقضائه .

والتحقيق : أن قلب رسول الله ﷺ اتّسع لتكميل جميع المراتب ، من الرضا عن الله ، والبكاء رحمةً للصبي ، فكان له مقام الرضا ، ومقام الرحمة ورقّة القلب . والفضيل لم يتّسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرحمة ، فلم يجتمع له الأمران . والناس في ذلك على أربع مراتب : أحدها : من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطفل ، فدمعت عيناه رحمةً والقلب راضٍ . الثاني : من غَيَّبه الرضا عن الرحمة ، فلم يتَّسِع للأمرين ، بل غيَّبه أحدُهما عن الآخر . والثالث : من غيَّبتْه الرحمة والرّقّة عن الرضا فلم يشهدْه ، بل فني عن الرضا . الرابع : من لا رضا عنده ولا رحمة ، وإنما يكون حزنه لفوات حظّه من الميِّت . وهذا حال أكثر الخلْق ، فلا إحسان ، ولا رضا عن الرحمـٰن . والله المستعان .

فالأول في أعلى مراتب الرضا . والثاني دونه . والثالث دون الثاني . والرابع هو الساخط .

يقول ابن القيم في مدارج السالكين ٢ / ٢١١ - ٢١٢ : « إن الرضا معقد نظام الدين ظاهره وباطنه ، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع ، فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية . وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونعم مُلذَّة ، وبلايا مؤلمة . فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله ، فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام وفاز بالقدح المُعَلَّى » .

الرضا مقام رفيع يليق بعالي الهمَّة :

إن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلىٰ المقامات ، فإن عجز العبد عنه ، حطَّهُ إلى المقام الوسط ، كما قال : « اعبد الله كأنك تراه » . فهذا مقام

المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فحطَّهُ عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، وهو العلم باطِّلاع الله عليه ورؤيته له ، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء . وكذا الحديث الآخر : « إن استطعتَ أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل . فإن لم تستطع ، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا » . فرفعه إلى أعلىٰ المقامات ، ثم ردَّه إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى . فالأول : مقام الإحسان . والذي حطَّه إليه : مقام الإيمان . وليس دون ذلك إلا مقام الخسران .

كما أنه ﷺ أثنىٰ على الراضين بمُرِّ القضاء ، بالحكم والعلم والفقه والقُرب من درجة النبوة ، كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ . فقال « ما أنتم ؟ » . فقالوا : مؤمنون . فقال : « ما علامة إيمانكم ؟ » . فقالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمُرِّ القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء . فقال : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » . والرضا آخِذٌ بزمام مقامات الدِّين كلها ، وهو رُوحُها وحياتها ، فإنه روح التَّوكُّل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصحة المُحِبّ ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله .

قال الربيع بن أنس : علامة حب الله : كثرة ذكره ؛ فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرتَ من ذكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السر والعلانية. وعلامة الشكر : الرضا بقَدَرِ الله والتسليم لقضائه .

وقال أحمد بن أبي الحواري : ذاكرتُ أبا سليمان في الخبر المرويّ : « أول مَنْ يُدْعَىٰ إلى الجنة الحمَّادون » . فقال : ويحك ، ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصَّى عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلى

الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلِّم راضٍ .

فصار الرضا كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه ، ولا يصحّ شيء منها بدونه ألبتة . والله أعلم .

والرضا يقوم مقام كثير من التَّعبُّدات التي تشقّ على البدن ، فيكون رضاه أسهل عليه ، وألذَّ له ، وأرفع في درجته . وقد ذُكر في أثر إسرائيلي : أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا ، فأُرِيَ في المنام : أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها ، إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة ، ويظلّ صائمًا وتظلّ مفطرة ، فقال لها : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ قالت : ما هو والله غير ما رأيت - أو قالت : إلَّا ما رأيت - لا أعرف غيره . فلم يَزَل يقول لها : تذكَّري . حتى قالت : خُصَيْلة واحدة هي فيَّ ، وذلك أني إن كنتُ في شدَّةٍ ، لم أتمنّ أني في رخاء . وإن كنتُ في مرضٍ ، لم أتمنّ أني في صحةٍ . وإن كنت في الشمس ، لم أتمنّ أني في الظِّلّ . قال : فوضع العابد يده على رأسه . وقال : أهذه خصيلة ؟! هذه والله خصلةٌ عظيمة يعجز عنها العُبَّاد .

وفي وصية لقمان لابنه : « أوصيك بخصالٍ تقرِّبك من الله ، وتُباعِدك من سخطه : أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا . وأن ترضىٰ بقدر الله فيما أحببت وكرهت » .

وقال بعض العارفين : مَنْ يتوكَّلْ على الله ، ويَرْضَ بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرغ يديه ورجليْه لكسْب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره .

والرضا يفتح باب حُسن الخلق مع الله تعالىٰ ومع الناس ، فإن حُسن الخلق من الرضا ، وسوء الخلق من السخط . وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وسوء الخلق يأكُل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب .

والرضا يُثمِر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وَطِيبَ النفس وسكونها في كلِّ حال ، وطُمأنينة القلب عند كل مفزعٍ مُهْلِع من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ، ورضاه منه بما يُجريه عليه ، وتسليمه له الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته ، ويُذهب عنه شكوى ربّه إلى غيره وتبرُّمه بأقْضِيَتِهِ ، ولهذا سمَّى بعضُ العارفين الرضا : حسن الخلق مع الله ؛ فإنه يُوجِب ترْك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذْف فضول الكلام التي تقدح في حُسن خُلقه ، فلا يقول : ما أحوج الناس إلى مطر . ولا يقول : هذا يومٌ شديد الحرّ ، أو شديد البرد . ولا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ وَغَمّ . ولا يُسَمِّي شيئًا قضاه الله وقَدَّره باسمٍ مذمومٍ إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن هذا كلَّه يُنافي رضاه .

قال ابن أبي الحواري - أو قيل له - : إن فلانًا قال : وددت أن الليل أطول مما هو . فقال : قد أحسن ، وقد أساء ؛ أحسن حيث تمنَّى طُولَهُ للعبادة والمناجاة ، وأساء حيث تمنَّى ما لم يُرِده الله ، وأحبَّ ما لم يحبّه الله .

« وقال عمر بن الخطاب يومًا لامرأته عاتكة - أُختِ سعيد بن زيد - وقد غضب عليها : والله لأَسُوأنَّكِ . فقالت : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام ، بعد إذ هداني الله له ؟ قال : لا . فقالت : فأي شيءٍ تسوءني به إذًا ؟! ». تريد أنها راضية بمواقع القدر ، لا يسوءها منه شيء إلَّا صَرْفها عن الإسلام . ولا سبيل له إليه .

وقال الثوري يومًا عند رابعةَ : اللهمَّ ارْضَ عنَّا . فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك ، وأنت غير راضٍ عنه ؟ فقال : أستغفر الله . ثم قال لها جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضيًا عن الله ؟ فقالت : إذا كان

سروره بالمصيبة مِثْل سروره بالنعمة .

ما لأولياء الله والهمّ بالدنيا ؟! إن الهمَّ بالدنيا يُذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم . أولياء الله أرْضَى عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشةٍ حتى يكون هو الذي يختار لهم .

والرغبةُ إلى الله عز وجل ولوازمُها : صفةُ أهل الهمَّة ، وهذه الرغبة ولوازمها لا تتمّ إلا باليقين والرضا عن الله ، ولهذا قال سهل : حظُّ الخلْق من اليقين على قدْر حظِّهم من الرضا ، وحظُّهم من الرضا على قدْر رغبتهم في الله .

ومما يدل على علوّ قدر الرضا ، وأنه بأهل الهمم العالية : « أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء ، كما في المسند والسنن : « اللهم بعِلْمِك الغيبَ ، وقُدْرَتِكَ على الخلْق ، أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفَّنِي إذا كانت الوفاة خيرًا لي . وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة . وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا . وأسألك القصْد في الفقر والغنى . وأسألك نعيمًا لا ينفد . وأسألك قُرَّة عينٍ لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء . وأسألك بَرْد العيش بعد الموت . وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك الكريم . وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة ، ولا فتنة مُضِلَّة . اللهم زَيِّنَا بزينة الإيمان . واجعلنا هُداةً مهتدين »[1] . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول : سأله الرضا بعد القضاء ؛ لأنه حينئذٍ تبيَّن حقيقة الرضا . وأمَّا الرضا قبله : فإنما هو عزْم على أنه يرضى إذا أصابه . وإنما يتحقَّق الرضا ....

(١) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٣٠١) .

بعـــده »[١] .

يا عالي الهِمَّة ، ليس لأعمال القلوب نهاية :

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « إن أعمال الجوارح تُضاعَف إلى حدٍّ معلومٍ محسوبٍ ، وأمَّا أعمال القلوب ، فلا ينتهي تضعيفها ؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حَدٌّ تنتهي إليه وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بِحَسَب حدِّها ، وأمَّا أعمال القلوب ، فهي دائمةٌ مُتَّصِلة ، وإن تَوَارَى شهود العبد لها . مثاله : أن المحبة والرضا حال المحبِّ الراضي ، لا تُفارقه أصلًا ، وإن توارَى حُكمها ، فصاحبها في مزيدٍ مُتَّصِل . فمزيد المحب الراضي : متّصل بدوام هذه الحال له ، فهو في مزيدٍ ، ولو فَترتْ جوارحه ، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيدِ كثيرٍ من أهل النَّوافل بما لا نِسْبَةَ بينهما ، ويبلُغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيدُه في حال نومه ، أَكْثَرَ من مزيدِ كثيرٍ من أهل القيام ، وأَكْلُه أَكْثَر من مزيدِ كثيرٍ من أهل الصِّيام والجوع . فإن أنكرتَ هذا ، فتأمَّلْ مزيد نائمٍ بالله ، وقيام غافلٍ عن الله . فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم ، لا إلى صُوَر الأعمال . وقيمةُ العبد : همَّتُه وإرادته . فمن لا يُرضيه غير الله ، ولو أُعطي الدنيا بحذافيرها ، له شأنٌ . ومن يُرضيه أدنى حظٍّ من حظوظها ، له شأن . وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة . وقد تكون أعمال المُلتفِت إلى الحظوظ أكثر وأشق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألةٍ ، وهي : هل للرضا حدٌّ ينتهي إليه ؟ فقال أبو سليمان الداراني : ثلاث مقاماتٍ لا حدَّ لها : الزهد ، والورع ، والرضا . وخالفه سليمانُ ابنُهُ – وكان عارفًا ، حتى إن من الناس من كان

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٣ .

يُقدِّمه على أبيه – فقال : بل مَنْ تورَّع في كل شيءٍ ، فقد بلغَ حدَّ الورع . ومَنْ زهد في غير الله ، فقد بلغَ حدَّ الزهد . ومن رضي عن الله في كل شيء ، فقد بلغَ حدَّ الرضا »(١).

أهل الرِّضا وعلوّ همَّتهم :

الخليل إبراهيم عليه السلام :

عن أبي رجاء محمد بن سيف قال : سمعت الحسن يقول في قوله : ﴿ **وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ** ... ﴾ . قال : « ابتلاه بالكوكب فرضي عنه ، وابتلاه بذبح ابنه فرضي عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه ، وابتلاه بالنار فرضي عنه ، وابتلاه بالختان »(٢).

سعد بن أبي وَقَّاص :

« لمَّا قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كُفَّ بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه ، كلّ واحدٍ يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام ، فتعرَّفت عليه فعرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم . فذكر قصةً قال في آخرها : فقلت له : يا عمّ ، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك ، فردَّ الله عليك بصرك ! فتبسَّم وقال : يا بُنيَّ ، قضاء الله سبحانه عندي أحْسَنُ من بصري »(٣).

عمران بن حُصَين :

« عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : « أتيت عمران بن حصين

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) صحيح وإسناده حسن . انظر الرضا عن الله لابن أبي الدنيا .

(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٨ ، ومدارج السالكين ٢ / ٢٢٧ .

يومًا ، فقلت له : إني لأدع إتيانك لِمَا أراك فيه ، ولما أراك تَلْقَىٰ . قال : فلا تفعل ، فوالله إن أَحَبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله »(١).

« كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنُه ، فبقي مُلقًّى على ظهره ثلاثين سنةً ، لا يقوم ولا يقعد ، قد نُقِب له في سريرٍ من جريدٍ كان عليه - موضعٌ لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال : لا تبكِ ، فإن أَحَبَّهُ إلى الله تعالىٰ ، أحبّه إليَّ . ثم قال : أُحدِّثك حديثًا لعلَّ الله أن ينفعك به ، واكْتُمْ عليَّ حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فآنَسُ بها ، وتُسلِّم عليَّ فأسمع تسليمها ، فأعلمُ بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبةٍ ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا في بلائه ، كيف لا يكون راضيًا به ؟! »(٢).

أبو الدرداء رضي الله عنه :

عن سعيد بن مرثد الهمداني ، أن أبا الدرداء قال : « ذروة الإيمان أربع خلالٍ : الصبر للحُكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص للتّوكُّل ، والاستسلام للرَّبِّ عزَّ وجل »(٣).

* * *

(١) الرضا عن الله صـ ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) الإحياء .

(٣) إسناده صحيح : وأخرجه ابن المبارك ١٢٣ ، كما في زوائد نعيم بن حماد ، وزاد : « ولولا ثلاث خلالٍ ، صلُح الناس : شحٌّ مطاع ، وهوًى مُتّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .
انظر الرضا عن الله صـ ٩١ تحقيق مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

عمر بن عبد العزيز :

عن يحيى بن سعيد قال : قال عمر بن عبد العزيز : « ما لي في الأمور هوًى سوى مواضع قضاء الله عز وجل فيها » . وفي رواية : « ما لي هوًى في شيءٍ سوى ما قضى الله عزّ وجل »(١).

وقال سليمان بن حبيب: «لمَّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز(٢)، دخل عليه سليمان بن الغاز فعزَّاه ، فقال عمر : وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبَّةٌ في شيءٍ من الأمور يخالف محبة الله ؛ فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي ، وإحسانه إليَّ »(٣).

وعن عبد العزيز بن سبرة عن أبيه عن جده قال : « لمَّا هلك عبدُ الملك ابن عمر بن عبد العزيز ، وسهلُ بن عبد العزيز ، ومزاحمٌ مولى عمر ، في أيامٍ متتابعة ، دخل عليه الربيع بن سبرة فقال : عظَّم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، ما رأيت أحدًا أُصيب بأعظم من مصيبتك في أيامٍ متتابعة ، والله ما رأيت مِثْل ابنك ابنًا ، ولا مثْل أخيك أخًا ، ولا مثل مولاك مولًى قطُّ . فطأطأ رأسَهُ ، فقال لي رجل معه على الوساد : لقد هيَّجتَ عليه . قال : ثم رفع رأسه فقال : كيف قلتَ لي يا ربيع ؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولًا ، فقال : لا ، والذي قضى عليه – أو قال : عليهم – الموت ، ما أُحبّ أن شيئًا كان من ذلك لم يكن »(٤).

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « لقد تركتني هؤلاء الدعوات ،

(١) إسناده صحيح ، والرواية الأخيرة للبيهقي في شعب الإيمان .
(٢) كان من الزاهدين ، ومات قبل أبيه .
(٣) الرضا عن الله صـ ١١٢ .
(٤) إسناده لا بأس به .

وما لي شيءٍ من الأمور كلها أربٌ إلَّا في مواقع قَدَر الله . وكان كثيرًا ما يدعو : اللهم رضِّني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحبّ تعجيل شيءٍ أخَّرتَهُ ، ولا تأخير شيءٍ عجَّلتَهُ »[١] .

أبـو العالـية :

قال سيار بن سلامة : « دخل رجل على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقال : إن أحبَّه إليَّ ، أحبُّه إلى الله عزَّ وجل »[٢] .

أبو معاوية الأسود :

قال عمرو بن أسلم العابد : « سمعـت أبا معاوية الأسـود يقول في قوله : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً** ﴾ [النحل : ٩٧] . قال : الرضا والقناعة »[٣] .

الربيع بن خثيم :

عن الأعمش بن عمرو بن مرة قال : « كان الربيع بن خثيم قد أصابه فالج ، قال : فسال من فيه ماء فجرى على لحيته ، فرفع يده فلم يستطع أن يمسحه ، فقام إليه بكر بن ماعز فمسحه عنه ، فلحظَهُ ربيعٌ ثم قال : يا بكر ، والله ما أُحبُّ أن هذا الذي بي بأعتى الدَّيْلم[٤] على الله »[٥] .

وكان الربيع - رحمه الله - يقول في شدَّة مرضه : ما أُحبّ أن الله نقصني منه قُلامة ظفر .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٧٤ .
(٣) إسناده حسن . وبنفس القول قال علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظي .
(٤) أي بأشد الأعداء . وفي الحلية : « بأغنى الديلم » . الرضا عن الله صـ ١٠٧ .
(٥) الرضا عن الله صـ ١٠٦ ، ١٠٧ .

سويد بن مثعبة :

عن أبي حيّان التيمي قال : « دخلوا على سويد بن مثعبة ، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله وأهله ، يقول له : نفسي فداؤك ، أما نُطعمك ؟ أما نسقيك ؟ قال : فأجابه بصوتٍ له ضعيف : دَبِرَت الحراقفُ وطالت الضَّجعة ، والله ما يسرُّني أن الله نقصني منه قَدْر قُلامة »[١].

أم الأسود بن يزيد :

عن إبراهيم النَّخَعيّ : « أن أم الأسود قُعدت من رجليها ، فجزعتْ ابنة لها ، فقالت : لا تجزعي ، اللهم إن كان خيرًا فزِدْ »[٢].

محمد الباقر :

عن سفيان بن عيينة ، عن رجل ، عن محمد بن علي بن الحسين أبي جعفر الباقر : « أن بعض أهله اشتكى فوجد عليه ، ثم أخبر بموته فسُرِّي عنه ، فقيل له ، فقال : ندعو الله فيما نُحبُّ ، فإذا وقع ما نكره ، لم نُخالف الله فيما أحبَّ »[٣].

الحسن البصري :

قال سفيان : قال الحسن : « من رضي بما قسم الله له ، وَسِعَهُ ، وبارك الله له فيه ، ومن لم يرضَ لم يَسَعْهُ ، ولم يبارك له فيه »[٤].

* * *

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٠٨ .
(٢) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) صحيح . الرضا عن الله صـ ١١٦ .
(٤) إسناده حسن . الرضا عن الله صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

سفـيان :

عن الحسن ، عن سفيان قال : « سمعت المفسِّرين من كل جانب يقولون في قوله : ﴿ **أغنى** ﴾ [النجم : ٤٨] : أرضى . قال سفيان : لا يكون غنيًّا أبدًا حتى يرضى بما قسم الله له ، فذلك الغِنَى »(١) .

وعن مصعب بن ماهان ، عن سفيان ، في قوله : ﴿ **وبشّر المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] قال : المطمئنّين ، الراضين بقضائه ، المستسلمين له .

الفضيل بن عياض :

قال الفضيل : « إن لم تصبر على تقدير الله ، لم تصبر على تقدير نفسك »(٢) .

قال الفضيل بن عياض لبشرٍ الحافي : « الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته »(٣) .

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : « الراضي لا يتمنّى فوق منزلته » .

وهيب بن الورد :

اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوريّ ، ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : قد كنت أُكره موت الفُجَاءَة قبل اليوم ، وأمَّا اليوم فوددتُ أني مَيِّتٌ . فقال له يوسف بن أسباط : وَلِمَ ؟ فقال : لِمَا أتخوَّف من الفتنة . فقال يوسف : لكني لا أكره طُول البقاء . فقال الثوري : ولِمَ تكره الموت ؟

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٣ .

(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .

(٣) مدارج السالكين ٢ / ١٧٧ .

قال : لعلّي أصادِفُ يومًا أتوب فيه وأعملِ صالحًا . فقيل لوهيب : أيّ شيءٍ تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئًا ، أَحَبُّ ذلك إليَّ أَحَبّهُ إلى الله . فقبَّل الثوريُّ بين عينيْه . وقال : روحانيةٌ وربِّ الكعبة[١] .

وكان وهيب - رحمه الله - له المقام العالي من الرضا وغيره .

عبد اللّـه بن المبـارك :

عن حفص بن حميد قال : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة ، حين ماتت امرأتُه ، فسألتُه : ما الرضا ؟ قال : « الرضا : لا يتمنَّى خلاف حاله »[٢] .

مالك بن دينار ومحمد بن واسع :

قال ابن شوذب : « اجتمع مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش ، فقال مالكٌ : ما شيءٌ أفضل من أن يكون للرجل غلَّة يعيش فيها . وقال محمد : طوبى لمن وجد غداءً ولم يجد عشاء ، ووجد عشاء ولم يجد غداءً ، وهو عن الله - عز وجل - راضٍ . أو فقال : والله عنه راضٍ »[٣] . وزاد أبو نعيم : فانصرف القوم وهم يَرَوْن أن محمدًا أقوى الرجلين .

ونظر رجل إلى قرحة في رِجْل محمد بن واسع ، فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال : « إني لأشكرها منذ خرجتْ إذ لم تخرج في عيني »[٤] .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٥ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٢ ، ٥٣ ، والحلية .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .

بشـــير الطــبريّ :

عن أبي عمرو الكِنْدِي قال : « أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري نحوًا من أربعمائة جاموس . قال : فاستركبني ، فركبت معه أنا وابنٌ له . قال : فَلَقِيَنَا عبيده الذين كانوا مع الجواميس ، معهم عِصِيِّهم ، قالوا : يا مولانا ، ذهبتِ الجواميسُ . فقال : وأنتم أيضًا فاذهبوا معها ، فأنتم أحرارٌ لوجه الله . فقال له ابنه : يا أباه ، أَفْقَرْتَنا ؟ فقال : اسكت يا بُنَيَّ ، إن ربي عز وجل اختبرني ، فأحببتُ[1] أن أزيده »[2] .

يبكي مع استشهاد ابنه :

قال أبو عبد الرحمٰن حاتم الجرجاني : بلغني : « إن لله تبارك وتعالى عبادًا ، إلا أن بعضهم أرفع من بعض ، ذهبت أُعزِّي رجلًا ، وقد قتلتِ التُّركُ ابنَهُ ، فبكىٰ حيثُ رآني ، فقلت : ما يبكيك ، وقد قُتل ابنك في سبيل الله ؟ قال : يا أبا عبد الرحمٰن ، أنت تظنُّ أني أبكي لقتله ؟! إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذته السيوف »[3] .

أبو عبد الله البراثي :

عن حكيم بن جعفر قال : سمعت أبا عبد الله البراثي يقول : « لن يَرِدَ الآخرة أرْفَع درجاتٍ من الرَّاضِين عن الله عزَّ وجل على كلِّ حال » .

وزاد أبو نعيم في حلية الأولياء وابن الجوزي في صفة الصفوة : « ومن وُهب له الرضا ، فقد بلغَ أفضلَ الدرجات ، ومن زهد على حقيقة كانت

---

(١) في صفة الصفوة : « فأردت » مكان « فأحببت » .
(٢) الرضا عن الله صـ ٥٤ ، ٥٥ .
(٣) الرضا عن الله صـ ١٠٤ .

مُؤْنَتُه خفيفة ، ومن لم يعرف ثواب الأعمال ثقُلتْ عليه في جميع الأحوال »[(١)].

أبو عبد الله النِّباجيّ :

قال أبو عبد الله النباجيّ : « إن في خلْق الله خلقًا يستحيون من الصبر ، لو يعلمون أقداره تلقَّفُوها تلقُّفًا »[(٢)].

ميمون بن مِهْران :

قال ميمون بن مهران : « من لم يرضَ بالقضاء ، فليس لحُمقه دواء »[(٣)].

عبد العزيز بن أبي روَّاد :

قال عبد العزيز بن أبي روّاد : « ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخلّ ، ولا في لُبس الصوف والشعر ، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل »[(٤)].

أعـــرابي :

قال الحسن بن علي البصري : أصبح أعرابيٌّ وقد مات له أباعر[(٥)] كثير ، فقال :

لا والذي أنا عَبْدٌ في عبادته ... لولا شماتةُ أعادِيهِ أظنِ
ما سرَّني أنَّ إبْلي في مباركها ... وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكُنِ[(٦)]

---

(١) الرضا عن الله صـ ٦٠ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٧٢ .
(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٥) جمع بعير .
(٦) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٤٨ .

شقيق البلخيّ :

قال شقيق البلخيّ : « من يرى ثوابَ الشِّدَّة ، لا يشتهي الخروج منها »[(١)].

يونس بن عبيد :

قال يونس بن عبيد : ما تمنَّيت شيئًا قطُّ[(٢)].

غيلان بن جرير :

قال سعيد الراسبي : قال غيلان بن جرير : « من أُعطي الرضا ، والتَّوكُّل ، والتفويض ، فقد كُفي »[(٣)].

الربيع بن أنس :

قال الربيع بن أنس : « علامة حُبِّ الله : كثرةُ ذكْره ؛ فإنك لا تحبّ شيئًا إلَّا أكثرتَ من ذكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السِّرِّ والعلانية . وعلامة الشكر : الرضا بقدَر الله والتسليم لقضائه »[(٤)].

أبو سليمان الدارانيّ :

عن أحمد بن أبي الحواريّ قال : سمعتُ أبا سليمان الدارانيّ قال : « أرجو أن أكون قد رُزقت من الرضا طرفًا ، لو أدخلني النار لكنتُ بذلك راضيًا »[(٥)] .

---

(١) الإحياء ٤ / ٣٦٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .

(٣) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٦ .

(٤) مدارج السالكين ٢ / ٢١٨ .

(٥) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٠ .

وعنه أيضًا قال : سمعت أبا سليمان يقول : « إذا سلا العبدُ عن الشهوات ، فهو راضٍ »(١).

وقال أبو سليمان الداراني : « قد نلت من كل مقامٍ حالًا ، إلَّا الرضا فما لي منه إلَّا مَشامّ الرّيح . وعلى ذلك لو أدخل الخلائقَ كلَّهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنتُ بذلك راضيًا »(٢). قال ابن تيمية : هذا عَزْمٌ منه على الرضا .

عن الحسن قال : « كان رجل بالمصيصة ذاهب النِّصف الأسفل ، لم يبقَ منه إلَّا روحه في بعض جسده ، ضريرٌ على سرير مثقوب ، فدخل عليه داخل فقال له : كيف أصبحتَ يا أبا محمد ؟ قال : مَلِك الدنيا ، منقطعٌ إلى الله ، ما لي إليه من حاجةٍ إلَّا أن يتوفَّاني على الإسلام »(٣).

قال محمد بن أبي القاسم مولى بني هاشم : « وعظَ عابدٌ جبّارًا ، فأمر به فقُطعت يداه ورِجْلاه ، وحُمل إلى متعبَّده ، فجاءه إخوانُه يُعَزُّونه فقال : لا تُعَزُّوني ، ولكن هَنِّئُوني بما ساق الله إليَّ . ثم قال : إلٰهي ، أصبحتُ في منزل الرَّغائِب ، أنظرُ إلى العجائب . إلٰهي ، أنت تودَّد بنعمتك إلى مَنْ يُؤذيك ، فكيف تودُّدك إلى من يُؤذَى فيك ؟! »(٤).

وهب بن مُنَبِّه :

عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه قال : « وجدتُ في زبور داود : يا داود هل تدري مَنْ أسْرَعُ الناس مرًّا على الصراط ؟ الذين

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٤ .
(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٨ .
(٣) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .

يرضُون بحُكمي ، وألسنتهم رطبةٌ من ذكْري »[١] .

فتح الموصليّ :

عن الحسين بن عليّ بن يزيد قال : قال رجلٌ لفتح الموصليّ : ادْعُ الله . فقال : « اللهمَّ هِبْنا عطاءَك ، ولا تكشف عنَّا غطاءَك ، وأرضنا بقضائك »[٢] .

قال أبو العباس بن عطاء : الفرح في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا .

وقال سفيان بن عيينة : من لم يصلُح على تقدير الله ، لم يصلح على تقدير نفسه .

وقال بعض العارفين : أصل العبادة ثلاثة : لا تَرُدّ من أحكامه شيئًا ، ولا تسأل غيره حاجةً ، ولا تدَّخِر عنه شيئًا .

وسُئل ابن شمعون عن الرضا ؟ فقال : أن ترضى به مُدبِّرًا ومختارًا ، وترضى عنه قاسِمًا ومُعطيًا ومانعًا ، وترضاه إلـٰهًا ومعبودًا وربًّا .

وقيل : الرَّاضي من لم يندم على فائتٍ من الدنيا ، ولم يتأسَّف عليها .

ولله در القائل :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذو قدرٍ   والدَّهْرُ ذو دُوَلٍ والرِّزقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ في ما اختار خالقُنَا   وفي اختيارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ والشُّومُ

* * *

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٧٣ .
(٢) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١١٥ .

لوْم المقادير لومٌ لمُقدِّرها ، وهو مُنافٍ للعبودية :

فمن لم يرضَ بالقدر ، وقع في لوم المقادير ومقدِّرها ، إما بقالبه وإمَّا بقلبه وحاله .

عن أنس رضي الله عنه : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيءٍ فعلتُه : لِمَ فعلتَهُ ؟ ولا لشيءٍ لك أفْعَلْه : ألا فعلتَهُ ؟ ولا قال لي لشيءٍ كان : ليته لم يكن ، ولا لشيءٍ لم يكن : ليته كان . وكان بعض أهله إذا لامني يقول : « دعوه ، فلو قُضي شيءٌ ، لكان » . فهذا كمال المُوافقة ، يرضى ما رضيه له ربُّه في الحالين .

قال بعض العارفين : ذنبٌ أذنبْتُه ، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة . قيل : وما هو ؟ قال : قلت لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يَقْضِهِ . أو : ليته لم يكُن .

وقال بعض السلف : لو قُرض لحمي بالمقاريض ، كان أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يقضه . .

احذر أن تكون معاملتك مدخولة :

وقيل لعبد الواحد بن زيد : هاهنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة . فقصده فقال له : حبيبي ، أخبرني عنك ، هل قنعتَ به ؟ قال : لا . قال : فهل أنستَ به ؟ قال : لا . قال : فهل رضيتَ عنه ؟ قال : لا . قال : فإنما مزيدُك منه الصوم والصلاة ؟ قال : نعم . قال : لولا أني أستحي منك ، لأخبرتك أنَّ معاملَتَك خمسين سنة : مدخولةٌ .

يعني أنه لم يُقَرِّبه فيجعله في مقام المقرَّبين ، فيوجده مواجيد العارفين ، بحيث يكون مزيده لديه أعمال القلوب ، التي يستعمل بها كلَّ محبوب مطلوب ؛ لأن القناعة حالُ الموفَّق ، والأُنسَ به مقامُ المحبِّ ، والرضا وَصْفُ المتوكِّل . يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين ، فمزيدُك عنده مزيدُ العموم

من أعمال الجوارح .

وقوله : « إن معاملته مدخولة » ، يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أنها ناقصة عن معاملة المقرَّبين التي أوجبت لهم هذه الأحوال . الثاني : أنها لو كانت صحيحة سالمة ، لا علَّة فيها ولا غشَّ ، لأثمرتْ له الأُنس والرضا والمحبَّة ، والأحوال العَلِيَّة . فإن الرب تعالىٰ شكور ، إذا وصل إليه عمل عبده جَمَّل به ظاهره وباطنه ، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحَسَب عمله . فحيث لم يجد له أثرًا في قلبه ، من الأُنس والرضا والمحبة ، استدلَّ على أنه مدخول ، غير سالم من الآفات .

لله دَرُّك يا سفيان :

قال سفيان الثوري : « مَنْعُهُ عَطَاءٌ » . وذلك أنه لم يمنع عن بخلٍ ولا عُدْم . وإنما نظر في خير عبده المؤمن ، فمنعه اختيارًا وحُسن نظر . وهذا كما قال ؛ فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً ، إلا كان خيرًا له ، ساءه ذلك القضاءُ أو سرَّه . فقضاؤه لعبده المؤمن المَنْعَ عطاءٌ ، وإن كان في صورة المنع ، ونعمةٌ وإن كانت في صورة محنة ، وبلاؤه عافيةٌ وإن كان في صورة بليَّة . ولكنْ لجهل العبد وظُلمه ، لا يعدّ العطاء والنعمة والعافية ، إلَّا ما التذَّ به في العاجل وكان ملائمًا لطَبْعِه ، ولو رُزق من المعرفة حظًّا وافرًا ، لعَدَّ المنع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذَّذ بالبلاء أكثر من لذّته بالعافية ، وتلذَّذ بالفقر أكثر من لذّته بالغِنَى ، وكان في حال القلَّة أعْظَم شُكرًا من حال الكثرة . وهذه كانت حال السلف[(١)].

سُسْنا كيفَ شئتَ يا إلٰهي :

نختم بما قال ذو النون المصري :

---

(١) أغلب النقل في الرضا عن كتاب : مدارج السالكين « مقام الرضا » .

إذا ارتحل الكرامُ إليك يومًا ... لِيَلْتَمِسُوكَ حالًا بعد حالِ
فإنَّ رحالنا حطتْ لترضَى ... بحلمكَ عن حلولٍ وارتحالِ
أنَخْنَا في فِنائك يا إلٰهي ... إليك مُعَرَّضِينَ بلا اعتلالِ
فَسُسْنَا كَيفَ شئتَ ولا تَكِلْنا ... إلى تدبيرنا يا ذا المعالي[1]

* * *

(١) الحلية ٩ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .